المبحث الثامن

إفلاس المادية (الشيوعية) في الجانب الاقتصادي

obeikandl.com

obeikandl.com

يسود العالم اليوم نظامان أحدهما رأسمالي والآخر شيوعي، هذا بالطبع قبل تمزق الاتحاد السوفيتي ولكل منهما دولته ورجاله وفلاسفته الذين يقفون وراءه لتطبيقه والدعوة إليه والدفاع عنه حتى تكون له الغلبة في دنيا الناس ونحن نتطلع إلى اليوم الذي يسود فيه النظام الإسلامي العالم. هذا النظام النابع من الإسلام الذي رضيه الله لنا في قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٤] لا يعرف الغلو في الدين رفقًا بالإنسانية المعذبة، الإسلام الذي يحمله العدول من كل خلف ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

وبهذا لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، فقد اكتوى العالم بنيران هذه النظم ولا يزال!! ولما كنت قد بدأت الحديث إليك أيها القارئ الكريم -بتوفيق الله- عن الشيوعية من زواياها المتعددة فاسمح لي أن أحدثك هذه المرة عن النظام الشيوعي ذلك السراب الذي يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا.

ولقد كثر الناعقون وتعالت صرخاتهم في أمكنة وأزمنة بعيدة وقريبة. أيها الناس: هلموا إلى الشيوعية وإذا كنتم ترفضون الجانب الإلحادي منها لأنكم تؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره. فلا بأس ولكن عليكم

بالجانب الاقتصادي فإن فيه بغيتكم فهو الذي يبدل أزماتكم رخاء وعسركم يسرًا وضيقكم فرجا، إنه جنة الدنيا.

وهذا كلام ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب، فهيا بنا نناقشه مناقشة موضوعية هادئة حتى يتبين لنا الرشد من الغي والحق من الباطل والطيب من الخبيث، ولنتعرف أولًا على أسس الاقتصاد المادي الشيوعي وهي:

١- إلغاء الملكية الفردية والقضاء عليها قضاء تامًا وتمليك الثروة ووسائل الإنتاج للدولة باعتبارها الوكيل الشرعي عن المجتمع وقد حدث ذلك كرد فعل لجرائم الملكية الفردية في النظام الرأسمالي، وبذلك يتم عزل الطبقات المستغلة في المجتمع ويصبح الاقتصاد ملكًا للطبقة العاملة التي تعتبر هي ومن يحالفها «أصحاب المصلحة الحقيقية والكادحين».

٢- توزيع السلع المنتجة على أفراد المجتمع حسب قاعدة «من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته» بمعنى أن على الفرد أن يبذل كل جهده للمجتمع وعلى المجتمع أن يتكفل له بمعيشته.

٣- التوفيق بين حاجة المجتمع والإنتاج وكميته وتنوعه وتحديده حتى لا يصاب المجتمع بمثل أمراض المجتمع الرأسمالي حينما أطلق الحريات بغير حدود.

ولقد ترتب على هذه الأسس ما يأتي:

أولًا: بالنسبة لملكية الأرض الزراعية فإنها تتمثل في إحدى صورتين أم فيهما معًا:

الأولى: «الكولخوزات»:

وهي عبارة عن تعاونيات زراعية قدمها الفلاحون للتعاونية وفيها يتم توزيع جزء من الدخل المزرعي للكولخوز حسب مساحات الأرض التي قدمها الفلاحون ويجري دفع أتعاب العمل فيها طبقا للقانون الاقتصادي الخاص بالتوزيع حسب العمل، ويدير الكولخوز هيئات إدارية يرأسها رؤساء الكولخوزات حيث يجري انتخاب الهيئة الإدارية

والرئيس من قبل الاجتماع العام للأعضاء، ويتكون الكولخوز من حوالي ٤٠٠ أسرة زراعية وحوالي ستة آلاف هكتار من الأرض الزراعية وحوالي ألف رأس من الماشية.

الثانية: «السوفخوزات»:

ويضم السوفخوز حوالي ٦٥٠ عاملًا وحوالي ثمانية ألاف هكتار من الأرض الزراعية وحوالي ألف رأس من الماشية ويقوم السوفخوز على أرض تعود ملكيتها للدولة وتقوم الحكومة بإدارتها عن طريق مديري المؤسسات الذين تعينهم الدولة.

وتؤدي «الكلوخوزات» و«السوفخوزات» عملها طبقا للخطة المرسومة وهي جزء من الخطة الشاملة للمجتمع الشيوعي، أما الملكية الخاصة للأرض الزراعية فهي لا تتعدى قطعة أرض صغيرة للعائلة الكولخوزية فضلًا عن بعض أدوات العمل الضرورية وعدد قليل من الماشية.

ثانيًا: بالنسبة للمؤسسات فهي تنقسم إلى:

أ- المؤسسات الكولخوزية وقد سبق الحديث عنها.

ب- مؤسسات الدولة.

ويذكر «خودو كورموف» أن مؤسسات الدولة تقوم على أساس ملكية الدولة التامة، أي ملكية الشعب لوسائل الإنتاج ولقد حدث مثل ذلك في مصر في عهد مضى ونتج عنه ما نتج من الضوائق والأزمات حتى قال كبار المسئولين إن سبب ذلك هو «اشتراكية الصنم».

ثالثًا: بالنسبة للادخار والفائدة على القرض (الربا):

لما كان الاقتصاد القومي يخضع في مجمله للعملية التخطيطية المركزية فإن الفرد ليس حرًا في أمر رزقه ولا في أمر استهلاكه وبالتالي أمر ادخاره ولو حدث وادخر فإن ذلك نوع من الاكتناز. أما بالنسبة للربا فالنظام الشيوعي لا يستنكره بل يقره ويتعامل معه

بالرغم من أضراره وأخطاره لأنه إيثار للمال ومحاباة له على العمل فهو كسب مضمون لرب المال دون أن يقابله كسب آخر للمقترض.

ويذكر الاقتصادي الألماني الكبير «شاخت»:

«إن الدائن المرابي يربح الفائدة دائمًا في كل عملية قرض بينما المقترض معرض للربح والخسارة ومن ثم فإن المال في النهاية يتجه إلى المرابي، أما أصحاب المصانع الذين يستدينون من البنك ليسوا إلا أجراء يعملون لحساب المال ويجني ثمرة كدهم المرابون».

ومن العجيب أن أحد قادة المدرسة الرأسمالية الحديثة وهو «كينز» يتمنى لو أزيلت الفائدة على رأس المال حيث يقول:

«إنه سيصبح نمو رأس المال الحقيقي في العالم الحديث من السرعة بحيث يصبح احتمال هبوط المعدل الحالي للفائدة إلى الصفر شيئًا محققا. فالربا يدمر اقتصاديات الفرد المقترض بالربا ويدمر اقتصاديات المجتمع المرابي، ويهدم أسس التكافل الاجتماعي ويدفع بالمرابي إلى حظيرة الشح والبخل وقسوة القلب واتجاهه إلى اكتناز المال والاستزادة من الربح دون جهد ولا مقابل يبذله».

فهل يفهم ذلك المسلمون الذين يتعاملون بالربا وخير لهم الرجوع إلى الحق بدلًا من التمادي في الباطل.

ومساوئ الشيوعية قد عرفها الناس، وما أمر كتاب جورباتشوف بعنوان «البيروستريكا» أي التغيير أو الإصلاح عنا ببعيد، والشيوعيون في الصين يتهمون الشيوعيون الروس بالتحريف و «تيتو»[1] في يوغسلافيا له رأيه وبعض دول أوروبا الشرقية لها رأيها الخاص وهكذا. وما حدث من زلزال في هذه الدول قوض أركان الشيوعية عرفه الجميع وبماذا يمكن أن نفسر ذلك كله؟

ألا يعتبر دليلًا على فشل النظرية عند التطبيق العملي. أم أن المكابرين والمعاندين

(١) قبل هلاكه طبعًا منذ فترة طويلة.

سيقولون: لا، ولكن انتظروا فترة أخرى من الزمن فإن لكل نظام حسناته وسيئاته، ولسوف تظهر حسنات هذا النظام بعد حين.

ولكن لما اتسع الخرق على الراقع كما يقولون اعترف زعماء الشيوعية أن هذا التحول الاجتماعي الهائل على خلاف الطبيعة الإنسانية ما دام الإنسان المادي ما زال محصورًا في نطاق تفكيره الذاتي ومصلحته الفردية وحتى يصلوا إلى المجتمع الذي يذوب فيه الأفراد نهائيًا ويتم القضاء فيه على الدوافع الذاتية قضاء تامًا. لا بد من قوة حازمة تمسك زمام المجتمع بيد حديدية وتحبس كل صوت يعلو فيه وتكتم كل نفس يتردد في أوساطه وتحتكر جميع وسائل الإعلام والنشر، وتضرب على الأمة نطاقا لا يجوز أن تتعداه وتعاقب على التهمة والظنة كيلا يفلت الزمام من يدها فجأة وبعبارة موجزة (لا بد من ديكتاتورية الطبقة العاملة) فهل هذا هو العلاج أيها الشيوعيون؟

الصورة السيئة:

ولنتأمل الصورة السيئة للمجتمع الروسي أبان الحرب العالمية الثانية حتى لا يكون ما قدمناه كلامًا نظريا، لقد أعلن زعماء ذلك المجتمع في ذلك الوقت عن برامج السنوات الخمس المتكررة في المدة ما بين ١٩١٧م حتى ١٩٤٠م وإنه بسبب هذه البرامج قد أصبحت الأحوال الاقتصادية على أحسن ما يرام ثم جاءت الحرب العالمية الثانية وتقدم الألمان داخل روسيا كالسهم المارق ولولا المساعدات الأوروبية والأمريكية لوقع الروس في هلاك محقق وظهر أن معجزات برامج السنوات الخمس أكاذيب فضحها واقع الحرب والدليل على ذلك قول «وليم بوليت» في كتابه طريق إلى فهم الاتحاد السوفيتي:

«كانت الحرب العالمية الأولى والثورة الشيوعية والحرب الأهلية قد أوقعت الاضطراب والانحلال في النظام الاقتصادي الروسي، ووقع على عاتق «لينين» عبء جسيم هو إعادة تعمير بلاده، إذ هبط الإنتاج الصناعي في عام ١٩٢٠م إلى ثُمن ما كان عليه عام ١٩١٣م، كما قل محصول الحبوب من ٧٤ مليون طن في سنة ١٩١٦م إلى ٣٠ مليونًا عام ١٩١٩م واضطر لينين إلى أن يبتدع سياسة اقتصادية جديدة توحي بالتراجع

عن السياسة الشيوعية التي طبقت سنة ١٩١٧م إذ كانت الحكومة تستولي على محصول الحبوب من الفلاحين وتترك لهم مقادير ضئيلة لطعامهم، فامتنع الفلاحون عن إنتاج ما يزيد عن حاجتهم، وأراد لينين تشجيعهم فأمر بأن يباح لهم بيع ما تبقى لديهم من المحاصيل في السوق الداخلية بعد أن تستولي الحكومة على حصتها.

واحتفظت الحكومة بحق احتكار التجارة الخارجية وأنشأت نظامًا لتجميع المصانع في وحدات تخضع لإشرافها، كما أبقت في يدها حق الإشراف على المصانع ذات الإنتاج الضخم وأذنت للأفراد بتملك بعض المصانع الصغيرة وإدارتها ومنحت بعض الامتيازات لرؤوس الأموال الأجنبية.

ولما تحسنت الأحوال الاقتصادية شيئًا ما في سنة ١٩٢٧م قرر ستالين أنه قد آن الأوان لشن الحرب على الجبهة الداخلية، ففرض نظام المزارع المشتركة وبسط إشراف الحكومة على الإنتاج الصناعي وتحولت الدولة إلى دولة لا يعمل بالزراعة فيها إلا نصف سكانها بعد أن كانت الغالبية تعمل بها.

وكان من جراء المزارع المشتركة أن اختفت ملايين المزارع الصغيرة، وقد رضي بعض الفلاحين الفقراء بهذا النظام بينما عارضه الكثيرون الذين صودرت مزارعهم مما أدى إلى إعدامهم رميا بالرصاص أو النفي إلى سيبيريا للقيام بأعمال السُّخرة وأطلق عليهم اسم «الكولاك» تحقيرًا لهم.

وحين لم يبق في روسيا فلاح ينعم باستقلاله الخاص قال ستالين في سنة ١٩٣٩م:

«لقد هلك المستغلون ولم يبق أحد ممن ينبغي القضاء عليهم».

وكانت نتيجة ذلك أن تفشت المجاعة واستولت الحكومة في سنة ١٩٣٣ من أوكرانيا وكوبان -رغم احتجاج الفلاحين- على مقدار من الحبوب بلغ من وفرته أن مات عدد من أهل الإقليمين يتراوح بين ثلاثة إلى خمسة ملايين نسمة من جراء المجاعة التي أحكمت الحكومة تنظيمها.

وعلى الرغم من ذلك ظلت الحكومة محتفظة للبوليس السري السياسي بمستوى رفيع من القوة والعدة والعدد لم تبلغ «الأوبريكينا» في أيام «إيفان المرعب» والتي عرفت باسم «التشيكا» في عهد لينين ثم باسم «الأوجينو» وهي تسمى اليوم «نكيفيدا» لقد تغيرت الأسماء ولكن طبيعة عملها لم تتغير فعليها أن تتشمم خصوم الديكتاتورية حتى تستأصلهم وبغير رحمة. ويعيش كل روسي في رعب خوفًا من الساعة التي تدق فيها بابه ليلا، ويأتمر بأمرها جيش يبلغ ربع مليون من الجنود، وأفراده أحسن أجرًا ومسكنا وطعاما من جنود الجيش الأحمر، وله مدافعه وطائراته وسجونه وأقبيته لتنفيذ حكم الإعدام، ولها ميزانيتها الضخمة التي تضمن لها القيام بعملها على أحسن الوجوه» أ هـ.

وماذا كانت النتيجة؟

من كل ما تقدم نرى أن الأرض الزراعية ومؤسسات الدولة في النظام الشيوعي قد تحولت من إقطاع الأفراد في النظام الرأسمالي إلى إقطاع الحزب الشيوعي، والفرق بينهما أن الأول غير منظم ولذلك تظهر التناقضات والصراعات وبحدة بين الإقطاعيين وبين صغار ملاك الأراضي الزراعية والمزارعين المعدمين وأصحاب المصانع الصغيرة، أما إقطاع الحزب الشيوعي فهو إقطاع مدروس ومنظم نتيجة لوحدة الإدارة بحيث إذا ظهر أي تناقض تم القضاء عليه بطريقة أو بأخرى.

وكانت المآخذ القاتلة..!

ولما حاول زعماء الشيوعية تطبيق ذلك النظام واجهتهم عقبات لا حصر لها، على رأسها الاصطدام بواقع الطبيعة البشرية حيث أخذ الأفراد يتقاعسون عن أداء واجبهم بل ويتهربون منه، إذ إن المفروض في النظام أنه يضمن التأمين لمعيشتهم وسد حاجاتهم، فعلام يجهدون أنفسهم طالما أن النتيجة واحدة في حالتي الخمول والنشاط، ثم لماذا يشقى الفرد ليسعد غيره؟ ولماذا يبذل دمه وعرقه في سبيل حياة الآخرين وهو لا يؤمن بقيمة الحياة إلا القيمة المادية الخالصة؟

obeikandl.com

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإنه قضاء على مبدأ الحافز الفردي الذي يعمل عمل السحر في النفوس عند الأفراد وحرمانهم من هذا الحافز حكم عليهم بالاضمحلال والفناء.

من أجل ذلك كله قام زعماء الشيوعية بعمليات «ترقيع» متعددة للنظرية أكثر من مرة. ولقد نفق الشيطان الأكبر كارل ماركس منذ ما يزيد عن مائة عام ومضى أكثر من مائة وعشرين عامًا على صدور الجزء الأول من كتاب «رأس المال» وأكثر من مائة وأربعين عامًا على صدور البيان الشيوعي كما مضى أكثر من ثلثي قرن على الانقلاب الشيوعي الروسي الذي تبنى أفكار «ماركس» ورفيقه «انجلز» مضى ذلك كله وما زلنا نسمع عن ترقيع بعد ترقيع وكلما جاءت أمة لعنت أختها، فرأي خروشوف في عهد ستالين ليس مجهولًا، كما أن نهاية خرشوف الحزينة لا تخفى على أحد.

رأي الكاتب الفرنسي (أندريه جيد) في الشيوعية:

وتزداد صورة المجتمع الروسي وضوحًا حينما نقرأ بعض ما قاله هذا الكاتب الذي كان من أشد الناس إيمانًا بالشيوعية فدعاه الروس إلى بلادهم ليطلع على أحوالها وعلى نهضتها حتى يزداد إيمانًا بها وذهب الرجل إلى روسيا ورأى أن ما خفي من أحوال وأهوال الشيوعية كان أعظم!! فرجع كافرًا بها ناقمًا عليها منددًا بسياستها وقد طعن الروس في رأيه -وهذا أمر طبيعي- ولكن الرجل يقول:

«أعتقد أنه من الخير للقضية التي يمثلها الاتحاد السوفيتي أن أتحدث عنه بغير تكلف ولا إدعاء ولا غمط ولا اعتداء وليس في نفسي شخصيا ما أشكو منه خلال رحلتي في بلاده رغم كل تلك التعليلات الناقمة الساخطة التي انتحلت فيما بعد لتفنيد ما قلته وتسفيه ما نشرته ورغم قولهم أن انتقادي جاء نتيجة استياء شخصي وتذمر خاص، وهو قول جد سخيف وأبعد ما يكون عن الواقع فلم أنتقل يومًا في حياتي بذلك الترف الذي أحاط بي في روسيا ولا كنت يومًا أوفر متعة وأكثر تكريمًا.

إلى أن يقول:

«وحين هربت من كبار الموظفين ومضيت اختلط بالعمال تبين أن أكثرهم يعيشون في أبشع صنوف الفاقة في الوقت الذي كنت أجلس فيه إلى مأدبة فاخرة كل ليلة وأرى الخوان حافلًا بأنواع الأطايب والمشتهيات حتى لتكفي لإشباع النفس قبل أن يبدأ الطعام ذاته».

ويمضي قائلًا:

«وكان إعجابي موجهًا بنوع خاص في روسيا إلى الانبعاث غير المألوف نحو التعليم والثقافة، ولكن المحزن أن التعليم الذي يتلقاه الشعب لا يتعدى تلقينه الزهو والتفاخر بالحاضر والإيمان المطلق بالاتحاد السوفيتي، وأن الثقافة إنما ترمي إلى هدف واحد هو تمجيد الاتحاد والتسبيح بحمده، فهي ليست ثقافة نزيهة مجردة عن الهوى ولا هي تثقيف للعقول وتربية لملكة الحكم على الأشياء، إن النقد لا وجود له في تلك البلاد. ولكنه نقد شكلي للتظاهر والاستعراض، وهو لا يتعدى البحث عما إذا كان هذا الأمر يتفق مع سياسة الحزب أم لا؟ لأن هذه السياسة لا سبيل إلى مناقشتها أو انتقادها.

ولم يعد اختفاء الرأسمالية من روسيا على العمال فيها بخير أو نفع ولم يسق لهم الحرية التي كانوا لها ناشدين. فلتدرك الطبقات الكادحة خارج الاتحاد السوفيتي هذه الحقيقة كل الإدراك! لقد ذهبت إلى روسيا لكيلا أجد للفاقة فيها أثرًا ولكن الفاقة هناك يُعبس في وجهها أينما سرت وتقابل بالإعراض والتجهم والاشمئزاز من السادة الذين حالفهم الحظ حتى ليخيل إلى المرء أنها الفاقة الأثيمة الناشئة في أحضان الإجرام، فلا تثير شفقة ولا تبعث على العواطف والإحسان بل ينظر إليها بعين الازدراء والاحتقار، وما أولئك الذين يتراءون متكبرين مزهوين إلا الذين اشتروا كبرياءهم وزهوهم بثمن هذه الفاقة العامة وعلى حساب هذا الفقر الشامل».

تلك مقتطفات من أقوال شاهد عيان على المجتمع الروسي.

وبعد فإن لنا أن نتساءل:

هل ستحقق المادية الشيوعية لأصحابها أملهم في جنة الدنيا أم أنها ستنتهي بهم إلى جحيم الدنيا والآخرة؟ ولينتبه المخادعون والمخدوعون والمغفلون النافعون من أبناء أمتنا العربية والإسلامية.

obeikandl.com